فكاهات

شباب الربيع

او

من حلب الشهباء الى اللكام

وردنا هذه الطرفة الحسناء من حضرة الالمعي الشاعر الناثر قسطاكي بك الحمصي في حلب فجعلناها مسك ختام السنة قال اعزّهُ الله

عند ما النور تدلّى كالسُجوفْ ورَمَت ذَرّاتُـهُ قلبَ الظلامْ
وعرا البدرَ اكمدادٌ كالخسوفْ ونسيم الفجرِ نادى للقيامْ
نَهضَ السائحُ يعدو للسفرْ

ولنَيْسانَ نشاطٌ وجمالْ ليسَ يحكيهِ سوى عصر الشبابْ
وسهولُ الدَرْبِ مع تلك التلالْ اصبحتْ من نبتها تحت نِقابْ
لم يَدُرْ في وشيهِ فِكرُ بشرْ

فجرى صاحبُنا دونَ الخَبَبْ حائراً من حسن هاتيك النقوشْ
قال ما هـذا أدُرٌّ ام ذهبْ ام لآلٍ نُـثِرتْ فوقَ عُرُوشْ
ام نجومٌ ام ندَى مثل المطرْ

وهو بينا يقطعُ السهلَ الفسيحْ قد حكى بحراً تبدّتْ خُضْرتُهْ
نَفَحتْ ريحٌ بها ارواحُ شيحْ ماجَ منها النبتُ تزهو نَضرتُهْ
فهو موجُ النبتِ يُجلَى للبصرْ

وعلى تلك الرُبى النور استبانْ بعـد ما أردية الليـل انطوَتْ
مُذْ عروسُ الكون بل حسنُ الزمانْ رَبَّةُ النورِ على العرش استوتْ
وغدتْ تسحبُ اذيالَ الخَفَرْ

عندهذا الارضُ ضجَّت بالدعآءْ لمجالي حُسنِها فعلَ شكورْ
وغدت ناشرةً نحو العـلآءْ من بُخار المآء ما يحكي البَخورْ
وتلتْ ازهارُها الحمدَ سُوَرْ

وهو طوراً يرتقي بعض القُلَلْ ثم يطوي تارةً بعض البِطاحْ
ويرى حيناً رُسوماً من طَلَلْ فتناجيـهِ بالفاظٍ فِصاحْ
فيرى في نفسهِ بعضَ الضجَرْ

فعدا حتى رأى بين النباتْ مثلَ برقٍ خالَهُ نورَ قَبَسْ
وتلاهُ صيحـةٌ كالقاصفاتْ اجفلَ الفارسُ منها والفرَسْ
اسفرتْ عن سِربِ طيرٍ قد نَفَرْ

وبدا عِفرينُ[1] في وادٍ خصيبْ ساكناً يُحْسَبُ من سرعتهِ
مثلَ مرآةٍ لهـا ضوءٌ عجيبْ هزَّها في الشمسِ من فزعتهِ
سارقٌ مستترٌ بين الشَجَرْ

ورأى للشمسِ في كَبِدِ السما لفحَ قيظٍ لم يَخَلْهُ مُمكنا
قال هـذا اول العَمْق[2] فما ذا يكون الحال في الصيفِ هُنا
والى ناحيةِ النهر انحدرْ

(١) اسم نهر (٢) اسم بقعة في تلك الناحية

فاذا في جانب المآء مَيتْ قد غدا نُزْلاً لابناء السبيلْ
قال من فيهِ يَقِلْ فهو بخيتْ ثم قاد الطرفَ يأتمُّ المَقِيلْ
فيهِ حيناً بعدَ ما الجسرَ عَبَرْ

***

حينما هبَّتْ نُسيماتُ المسا وتلاشتْ سَوْرةُ الحرّ العظيمْ
وتردّى الكونُ اثواب الاسى لِفِراقِ الشمسِ والبُعدُ أليمْ
وَحكَتْ اذا غربت وجه القمرْ

ظهرَ البدرُ لهُ وجهٌ كئيبْ من محلِّ الشمس إبّانَ الشُروقْ
فحكاها اذ حكتْهُ في المَغيبْ كمُعَزٍّ ولهُ قلبٌ خفُوقْ
وتلاهُ كُلُّ نجمٍ اذ سفَرْ

فعلَتْ وجهَ النباتِ الاخضرِ صُفْرَةٌ من نورها المُنعكِسِ
وعلى العَمْقِ الفسيحِ المقفرِ ساد سُلطانُ سكُون الغلَسِ
فامتطى صاحبُنا المهرَ الأغَرْ

وبدا الأُفقُ لهُ مدَّ البصرْ قد حكى روضاً بلونٍ ازرقِ
زهرُهُ من كُلِّ نجمٍ قد زَهَرْ جلَّ ان ينبتَ بينَ الورقِ
او يُدانيهِ ذبولٌ او غيَرْ

او كبحرٍ مُذْ صفا المآءُ بهِ ملأتهُ الجارياتُ السابحاتْ
ورأينَ البدرَ في مَركبهِ فتوارينَ حياءً مُرسِلاتْ
اثرَ الغطسِ رشاشاً من شَرَرْ

قالَ هلْ هذي مصابيحُ الدُجى ام دنانيرٌ على وجهِ الرَقيعْ
ام كُرَاتٌ حيَّرتْ اهل الحِجى ام دُنًى دارتْ بترتيبٍ بديعْ
وكذُنيانا بها خلقٌ بَشَرْ

وهلِ القومُ بها قد علِموا ايُّ ارضٍ ارضنا في الكائناتْ
ام تراهم مثلنا قد رجموا بوجود الخلق في ذي النيّراتْ
وابتغوا ان يكشفوا عمّا استترْ

ورأى في اسفلِ الغورِ دُخانْ وتلاهُ نبحُ كلبٍ من بعيدْ
وجرتْ في أَنْفِهِ ريحُ المكانْ نافخٌ كِبْريتها نفحاً شديدْ
فدرى أنْ في قُرَى الحُمّامِ قَرْ

فهوى في الارض عن ظهر الجوادْ واشتهى الغُسْلَ ولو في ذا الحميمْ
فرأى فيهِ من الناس سوادْ جُلُّهمْ يبغي الشفا مُضنًى سقيمْ
فاعتلى ظهرَ المُجلّي ثم فَرْ

بعد هذا قد احسَّ المُهرَخاضْ مآءَ نهرٍ ما لهُ صوتُ خريرْ
فاجتلاهُ فاذا ثَمَّ حياضْ جُمعت من ذلك المآءِ الغزيرْ
ليس حَوْلَيها نباتٌ او شجرْ

فسرى والبدرُ في الأُفقِ اعتدلْ يتخطّى جدولاً بعد فلَجْ
وهو من حينٍ لحينٍ لم يزلْ يتعدّى رُبوةً منذُ الدلَجْ
تلك برجاً جُعلت فيما غبَرْ

وتُجاهَ العين طيّاتُ الأكمْ قد بدَت تحكي رُكاماً من غيومْ
بعضها قد غاصَ في لُجِّ الظلامْ ثمَّ بعضٌ كان في النورِ يعومْ
ذاكَ نورُ البدرِ او نورُ السَحَرْ

وترآءى بعد ذا السفحُ لهُ ثمَّ اشباحُ رُعاهِ وغَنَمْ
وصياحُ الديكِ قد اعجلهُ لبُلوغِ الخانِ ان كان جزَمْ
ان يُريح الجسمَ من بعدِ السهرْ

***

ما الذّ العيشَ عيشَ المرءِ في بُقعةٍ قد جمعتْ كلَّ الجمالْ
من جبالٍ مآوُها من قرقَف ومروجٍ ورياضٍ ودغالْ
واذا اشتى الى وادٍ نفَرْ

ونُعيجاتٍ لهُ في سَمنها ولبانها خيرُ مطعمٍ مُقيت
ودجاجاتٍ يرى في كنّها كلَّ يومٍ طارفَ البيضِ شتيتْ
واذا ما شاقهُ اللحمُ نحَرْ

ونباتاتٍ لهُ في زرْعها بغيةُ العاملِ للربحِ الصريحْ
ولهُ من بعدِ ذا في قطعها لذّةُ الآكلِ ذي الجسمِ الصحيحْ
ناعمَ البالِ خليًّا من كدَرْ

لا يرى أيّانَ ما سار حسودْ يُظهرِ الوُدَّ على بغضٍ كمينْ
او لئيمَ الطبعِ مكّاراً كنودْ يتحامى شرَّهُ في كلِّ حينْ
او عدوًّا او كذوباً مُحتقَرْ

او جهولاً ساحباً ذيل الغرورْ يحسبُ الدنيا لهُ قد خُلقتْ
يتباهى بفسادٍ وفجورْ زاعماً قَرينتَهُ قد رُزقتْ
من ذكا افكارهِ علمَ البشرْ

او نظامَ الشمسِ مملوكاً رقيقْ ما لهُ شغلٌ سوى خدمتهِ
فهي لا يطلعُ الاَّ اذ يُفيقْ والدراري قُمنَ في رَقدَتهِ
سُرُجاً تُطفا اذا الصبحُ انفجرْ

الكهربا قد قُدحتْ عن بَريقٍ لاحَ من ضوءِ سناهْ
وتمنى يوشنْ لو سنحتْ لسما آرائهِ فيما اتاهْ
خطراتٌ منهُ مرّت بالفكرْ

او علومَ الطبِّ نالتْ كلَّ ما يُتمنَّى من شفآءِ العللِ
مذ جلاها من نداهُ بعضَ ما يرتئيهِ من مُصُولِ الحيَلِ
وغدا السلُّ حديثاً او عبرْ

او كأنَّ الجذبَ قد افضى الى علمهِ بالسرِّ دونَ العالمينْ
او كأنَّ الكيميا وقفٌ على حَدْسهِ اذ حلَّ لُغزَ الاقدمينْ
فاحال الصفْرَ تبراً مختبرْ

او كأنَّ البدرَ من طلعتهِ قد غدا مكتسباً بعض الجمالْ
او كأنَّ الشمسَ عن قُدرتهِ اصبحتْ قائمةً في ذا الجلالْ
والنجومُ امتثلتْ ما قد أمرْ

*
* *

اين حال القانع الساكن في مثل هذا الجبل القهب الأريض
وبذاك الوصفِ منهُ يكتفي زاهداً في المال والجاه العريض
من حريصٍ ساكنٍ بين الحضَرْ

ولهُ من ذا الهوا مُطلقُهُ ومن الطيرِ مُغنٍّ ونديمْ
ومن الماء لهُ ريقُهُ ومن الوحشِ انيسٌ وحميمْ
ومن الاشجار جارٌ قد خفَرْ

ليس من باغٍ ولا عادٍ ولا عائثٍ في رزقهِ كيف ذهبْ
واذا ما مل احياناً تلا في كتابِ الكونِ ما يُولي طرَبْ
واغتنى عن كلِّ اصنافِ البشَرْ

***

عند ما قد ايقظتْ شمس الضحَى بطلَ الرحلةَ من رَقْدَتهِ
شاهد السفحَ رياضاً والهنا يخدم القاطنَ في وجدتهِ
وخريرُ الماء للهمِّ زَجَرْ

فمضى يَذْكرُ بيتاً زانهُ فيلسوفُ الشعرِ في ماضي الزمانْ
آدمٌ سنَّ لكم عصيانهُ فنأيتم مثلهُ عن ذي الجِنانْ
يا بنيهِ وبكم حلَّ القدَرْ

وجرى ممتطياً سرجَ السبُوحْ وهو يرقى في إكامٍ وهِضابْ
تارةً للعينِ تبدو او تلوحْ قِمَّةٌ تطبح اكناف السحابْ
ثم تخفى لا يُرى منها أثَرْ

ويرى اوديةً ان شامَها سيّدُ الطيرِ تولاّهُ الهلَعْ
أنبتتْ آجامُها اهرامَها وجرى المآءُ اليها واندفعْ
غيرَ هيّابٍ عظيماً فانكسَرْ

ثم القى نظرةً فوقَ السهولْ فرأى العَمْقَ كبُسْطٍ او رِقاعْ
الفَ شكلٍ هندسيٍّ بأُصولْ خطَّهُ المحراثُ في تلك البِقاعْ
عادَ اقليدُسُ عنهُ في حصَرْ

وجرى في فِكرهِ ما قد جرى من دَمِ الانسانِ في تلك الوِهادْ
ثم اغفى لحظةً فيها سرى طيفُ مَن طبَّق اطرافَ البلادْ
حاكِمُ الشهبآء فيما قد غبَرْ

ذاكَ سيفُ الدولةِ القَرْمُ المَجيدْ افعم العمقَ بِمُهْراقِ الدمآء
كم لهُ من وقعةٍ كان يُجيدْ وصفَها قائدُ جيش الشُعرآء
متنبّي الشرق بل ربُّ الغُرَرْ

ورأى مِن خلفهِ دارا يَسيرْ بجُيُوشٍ ملأَتْ تلك الجِهاتْ
يحسبُ النصرَ مع الجمعِ الكبيرْ لم يَدُرْ في فِكرهِ انَّ الثباتْ
وصوابَ الرأيِ عُنوانُ الظفَرْ

ثم كانتْ لَفتةٌ منهُ الى أَشمُلِ الشاهقِ من تلكَ الجبالْ
فرأى ربَّ الفتوحاتِ اعتلى قُلَّةً في عَسكرٍ صُلْبِ النزالْ
يَخْدَعُ الفُرْسَ بتدبيرٍ بَهَرْ

قالَ ذو القرنين يا قوم اثْبُتوا لا تهولنَّكمُ كثرتهمْ
سوفَ تُلفونهمُ قد كُبِتوا ليسَ تُغني عنهمُ عِدّتهمْ
لا ولا يُرهَبُ الا مَن قَدَرْ

غرَّ دارا قِلّةُ الاعداءِ في ذلك المَعْقِلِ فاختارَ الهُجومْ
صَلَفُ الانسان بَدءُ التلفِ مُستَخِفُّ الضدِّ مذمومٌ ملومْ
وفَطيرُ الرأيِ محرومُ الوَطَرْ

مذ رأى اليونانُ من تلك الجبالْ فيلقَ الفُرْس تصدّى للصعودْ
رشقوهُ بحِجارٍ ونِبالْ فبدا الرُعْبُ بهاتيك الجنودْ
وفريقٌ بفريقٍ قد عثرْ

ثم قامَ الهَرْجُ واشتدّ الجِلادْ وعلا العجُّ الى السبعِ الطِباقْ
وملا النقعُ الفيافي والنِجادْ ومجالُ الدفع بين الفُرْسِ ضاقْ
فرأوا إدبارَهم رأسَ الحَذَرْ

وتلا دارا علاماتِ الفَشَلْ في عُيونٍ ونفوسٍ خائرهْ
ودرى الوابلَ من بعد الوَشَلْ وعليهِ ستدورُ الدائرهْ
فتولّى هارباً من ذا الخَطَرْ

فاقامَ الويلُ في تلك الجُيُوشْ هولَ آثارٍ بها تُشجَى العُيونْ
منظراً قد فَرِقتْ منهُ الوحُوشْ وغدا عاراً على مَرِّ القُرونْ
يرسم الانسانَ في شَرِّ الصُوَرْ

جُثَثُ القتلى على ذاك الصعيدْ ستترتْ نضرةَ ذيّاك النباتْ
كُلُّ ذي روحٍ غدا مثل الحصيدْ وتساوى الكلُّ في شرعِ الممات
ودمُ المخلوقِ كالمآء انهمَرْ

***

ومضى من ثمَّ ذاك السائحُ يترقّى في معاريجِ الجبَلْ
تارةً يُشجيهِ طيرٌ صادحُ ثمّ يستوقفُهُ هَدْرُ جَمَلْ
او نعيقٌ او غزالٌ قد نفَرْ

ورأى اذكان في بعض الهضابْ غابةً قد اشتبهتْ صرحاً بديعْ
بسقتْ ادواحُها حتى السحابْ وجلتْ أفنانُها سقفاً رفيعْ
بعُقودٍ تزدري عقدَ الحجَرْ

أذِنَتْ للشمسِ فيهِ بالدخولْ واحلّتْ للهوا فيهِ المسيرْ
وبهِ عينٌ لها شرحٌ يطولْ وعلى اغصانهِ القُمْرُ تطيرْ
وهي تشدو حمدَ مَن فاق الفِكَرْ

قال هذي جنّةٌ قد حُجبتْ عن عُيونِ الإنسِ من بضعِ دُهورْ
غرستها يدُ مولًى كتبتْ قد جعلناها مُقاماً للطُيورْ
فهي لم تأثمْ ولم تدرِ الضَرَرْ

اين من هذا قصورُ الأُمَرا وبيوتُ الناسِ في كلِّ البلادْ
خيّم الشرُّ بها لمّا سرى كلُّ مكرٍ في حماها وفسادْ
تلكَ والحقِّ لقد أمستْ سقَرْ

ليتني قد كنتُ عُصفُوراً ولي نصفُ وَكرٍ في اعالي الشجرِ
ليسَ لي غير أستماعِ البُلبُلِ واشتغالي بلذيذِ الثمرِ
عن سماعِ الإفكِ او شيءٍ أمَرْ

ورأى الشمس الى الغرب هوَتْ فأغذَّ السيرَ في تلك القِمَمْ
يتملَّى كلَّ حسنٍ قد حوَتْ وهوَ يرقى علَماً بعدَ علَمْ
لبُلوغِ القصدِ من هذا السفرْ

فاذا بالبحرِ قد بانَ لهُ مالهُ في الارضِ من شبهٍ عظيمْ
وبأقصاهُ بدا ما هالهُ اذ رأى الشمس لها وجهٌ سقيمْ
تستغيثُ الخلق في دفعِ الخَطرْ

ورآها هبطَتْ فوقَ العُبابْ مثلَ عُصفُورٍ امامَ الأُقنُوانْ
ثمَّ عجَّ الموجُ يعلو كالهضابْ لأبتلاعِ الشمس في بضعِ ثوانْ
يا لبركانٍ ببحرٍ قد ثَارْ